كلمةٌ مؤمنةٌ

في ردِّ كلمةٍ كافرةٍ[1]

تلقَّيت كتاباً هذه نسخته :

أكتب إليك متعجِّلاً بعد أن قرأت : « كلمة كافرة » في كوكب الشَّرق الصَّادر مساء الجمعة ٢٧ من أكتوبر ، كتبها متصدِّرٌ من نوع قولهم : حبَّذا الإمارة ، ولو على الحجارة . . وسمَّى نفسه « السَّيِّد » فإنْ صدق فيما كتب صدق في هذه التَّسمية .

طعن في القرآن ، وكفر بفصاحته ، وفضَّل على آيةٍ من كلام الله جملةً من أوضاع العرب ، فعقد فصله بعنوان « العثرات » على ذلك التَّفضيل ، كأنَّ الآية عثرةٌ من عثرات الكتاب يصحِّحها ، ويقول فيها قوله في غلط الجرائد ، والناشئين في الكتابة ، وبرقع وجهه ، وجبن أن يستعلن ، فأعلن بزندقته : أنَّه حديث في الضَّلالة .

غلى الدَّم في رأسي حيث رأيت الكاتب يلج في تفضيل قول العرب : « القتل أنفى للقتل » على قول الله تعالى في كتابه الحكيم : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة : ١٧٩] . فذكرتُ هذه الآية القائلة : ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ [الأنعام : ١٢١] . وهذه الآية : ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام : ١١٢] . ثمَّ هممت بالكتابة ، فاعترضني ذكرك ، فألقيت القلم ؛ لأتناوله بعد ذلك ، وأكتب به إليك .

ففي عنقك أمانة المسلمين جميعاً لتكتبنَّ في الرَّدِّ على هذه الكلمة الكافرة لإظهار وجه الإعجاز في الآية الكريمة ، وأين يكون موقع الكلمة الجاهليَّة منها ، فإنَّ هذه زندقةٌ إنْ تركت تأخذ مأخذها في النَّاس ؛ جعلت البرَّ فاجراً ، وزادت

---

(١) البلاغ ، نوفمبر ، سنة (١٩١٢) ، وانظر « فترة جمام » من كتابنا : « حياة الرَّافعي » . (س) .

الفاجر فجوراً ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال : ٢٥] .

واعلم : أنَّه لا عذر لك ! أقولها مخلصاً ، يمليها عليَّ الحقُّ الَّذي أعلم إيمانك به ، وتفانيك في إقراره ، والمدافعة عنه ، والذَّود عن آياته ، ثمَّ أعلم : أنَّك ملجأٌ يعتصم به المؤمنون حين تناوشهم ذئاب الزَّندقة الأدبيَّة الَّتي جعلت همَّها أن تلغ ولوغها في البيان القرآنيِّ .

ولست أزيدك ، فإنَّ موقفي هذا موقف المطالب بحقِّه ، وحقِّ أصحابه من المؤمنين ، واذكر حديث رسول الله ﷺ : « من سُئل علماً علمه ؛ فكتمه ، جاء يوم القيامة ملجماً بلجامٍ من نارٍ ! »(١) ، أو كما قال .

والسَّلام عليكم .

م . م . ش

* * *

قرأتُ هذا الكتاب فاقشعرَّ جسمي لوعيد النَّبيِّ ﷺ ، وجعلت أردِّد الحديث الشَّريف ، أستكثر منه ، وأملأ نفسي بمعانيه ، وإنَّه ليكثر في كلِّ مرَّةٍ ، فإذا هو أبلغ تهكُّمٍ بالعلماء المتجاهلين ، والجهلاء المتعالمين . وإذا هو يؤخذ من ظاهره : أنَّ العالم الَّذي يكتم علمه النَّافع عن النَّاس يجيء يوم القيامة ملجماً ، ويؤخذ من باطنه : أنَّ الجاهل الَّذي يبثُّ جهله الضَّارَّ في النَّاس يجيء يوم القيامة ملجماً مبرذَعاً(٢) . . . أي : فهذا ، وهذا كلاهما من حمير جهنَّم !

والتمستُ عدد « الكوكب » الَّذي فيه المقال ، وقرأته ، ولم أكن أصدِّق : أنَّ في العالم أديباً مميِّزاً نفسه هذا الموضع من التَّصفُّح على كلام الله ، وأساء الأدب في وضع آيةٍ منه بين عثرات الكتاب ، فضلاً عن أن يسمو لتفضيل كلمةٍ من كلام العرب على الآية ، فضلاً عن أن يلج في هذا التَّفضيل ، فضلاً عن أن يتهوَّس في هذه اللَّجاجة ؛ ولكن هذا قد كان ، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله !

ولعمري وعمر أبيك أيُّها القارىء ! لو أنَّ كاتباً ذهب ، فأكل ، فخلط ،

---

(١) رواه أبو يعلى (٢٥٨٥) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١ / ١٦٣) .

(٢) « مبرذعاً » : المبرذع : المبردع ، وهو الحمار أو البغل ؛ الذي وضع عليه البردعة ؛ ليركب عليه ، كالسَّرج للفرس .

فتضلَّع ، فنام ، فاستثقل ، فحلم . . . أنَّه يتكلَّم في تفضيل كلمة العرب على تلك الآية ، واجتهد جهده وهو نائمٌ ذاهب الوعي ، فلم يألُ تخريفاً واستطالةً ، وأخذ عقلهُ البَاطن يكنس دماغه ، ويُخرج منه (الزُّبالة العقليَّة) ليلقيها في طريق النِّسيان ، أو في طريق الشَّيطان ؛ لما جاء في شأوه[1] بأسخف ، ولا أبرد من مقالة « السَّيِّد » فسواءٌ أوقع هذا التَّفضيل من جهة الهذيان ، والتَّخريف كما فعل كاتب النَّوم ، أم وقع من جهة الخلط ، والخبط ، كما فعل كاتب الكوكب ، فهذا من هذا . طباقُ سخافةٍ بسخافةٍ .

نعم إنَّ مقالة الكوكب أفضل من مقالة الكاتب الحالم . . . ولكنَّ قليل الزَّيت في الزُّجاجة ؛ الَّتي أهديت لجحا لا يعدُّ زيتاً ما دام هذا القليل يطفو على ملء الزُّجاجة من . . . من البول !

ولقد تنبَّأ القاضي الباقلانيُّ قبل مئات السِّنين بمقالة الكوكب هذه ، فأسلفها الرَّدَّ بقوله :

« فإن اشتبه على متأدِّبٍ ، أو متشاعرٍ ، أو ناشئٍ ، أو مرمدٍ فصاحة القرآن ، وموقع بلاغته ، وعجيب براعته ، فما عليك منه ، إنَّما يخبر عن نفسه ، ويدلُّ على عجزه ، ويبين عن جهله ، ويصرِّح بسخافة فهمه ، وركاكة عقله » ما علينا . .

يقول كاتب الكوكب بالنَّصِّ :

قالت العرب قديماً في معنى القصاص : « القتل أنفىٰ للقتل » ، ثمَّ أقبل القرآن الكريم علىٰ آثار العرب (هكذا) فقال : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٩] وقد مضت سنَّةُ العلماء من أساطين البيان أن يعقدوا الموازنة بين مقالة العرب هذه وبين الآية الحكيمة أيَّتهما أشبه بالفصاحة ؟ (هكذا) ، ثمَّ يخلصون منها إلى تقديم الآية ، والبيان القرآنيِّ . ثمَّ قال : من رأي كاتب هذه الكلمة تقديمُ الكلمة العربيَّة على الآية الغرَّاء ، (اللَّهمَّ غفراً) على ثلج الصَّدر بإعجاز القرآن (كلمة للوقاية من النِّيابة . وإلا فماذا بقي من الإعجاز ، وقد عجزت الآية ؟ زِهْ زِهْ يا رجل . . !) .

ثمَّ قال : إنَّ فيما تُقدَّم به الكلمة العربيَّة على الآية الحكيمة (اللَّهمَّ غفراً) مزايا

(١) « شأوه » : الشأو : الشَّوط ، والسَّبق ، والغاية ، والأَمَد .

ثلاثاً : أولى هذه المزايا الثَّلاث : هذا الإيجاز السَّاحر فيها ؛ ذلك أنَّ « القتل أنفى للقتل » ثلاث كلماتٍ لا أكثر ، أمَّا الآية فإنَّها سبعُ كلمات (كذا) وعلى تلك فهي أقدم عهداً ، وأسبق ميلاداً من آية التَّنزيل (تأمَّل) حاشا كلام الله القديم ، والإيجاز ميِّزةٌ أيَّة ميِّزةٍ . الميِّزة الثَّانية للكلمة : الاستقلال الكتابي ، وفقد التَّعاقد بينها وبين شيءٍ آخر سابقٍ عليها ، حتَّى إنَّ المتمثِّل بها ، المستشهد يبتدئ بها حديثاً مستتمّاً ، ويختتمه في غير مزيدٍ ولا فضل ، فلا يتوقَّف ، ولا يستعين بغيرها ؛ أمَّا الآية فإنَّها منسوقة مع ما قبلها بالواو ، فهي متعاقدةٌ مترابطةٌ معه ، لا يتمثَّل بها المتمثِّل حتى يستعين بشيءٍ سواها ، وليس الَّذي يعتمد على غيره ، فلا يستقلُّ كالَّذي يعتمد على نفسه ، فيستقلُّ . الميِّزة الثَّالثة : أنَّ الكلمة ليست متَّصلةً في آخرتها بفضلٍ من القول تغني عنه ، على حين تتَّصل الآية بما تغني عنه من القول . ويعتدُّ كالفصل ، وهو كلمتا ﴿يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ و﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ، وإن كان لا زيادة في القرآن ، ولا فضول .

ثمَّ قال : إنَّ مدرساً جاءه بالفصل ؛ الَّذي عقده الإمام السُّيوطيُّ في كتابه « الإتقان » لتفضيل الآية على الكلمة ، وفيه قرابة خمسةٍ وعشرين حجَّةً ، قال : إنَّها انحطَّت بعد أن رماها بنظره العالي إلى أربعٍ « أمَّا الباقيات فمن نسج الانتحال والتَّزيُّد » قال : وأولاها : أنَّ الآية أوجز لفظاً ، والكاتب يرى الآية « سبع كلمات في تحديدٍ ودقَّةٍ » قال : « إذاً لقد بطلت حجَّة الإيجاز في الآية » (اللَّهمَّ غفراً) قال : والثَّانية : « أنَّ في الكلمة العربيَّة تكراراً لكلمة القتل سلمت الآية منه » وردَّ الكاتب : أنَّ هذا التَّكرار « يتحلَّل طلاوة ، ويقطر رقَّةً (قال) : وهذا فمي فيه طعم العسل » (قلنا : وعليه الذُّباب يا سيِّدنا . . !) والثَّالثة : أنَّ في الآية ذكراً للقصاص بلفظه على حين لا تذكر الكلمة إلا القتل وحده ، وليس كلُّ قتلٍ قصاصاً ، ودفع الكاتب هذا بأنَّ الكلمة انطوت على قتلين أحدهما ينفي صاحبه ، فذاك هو القصاص ، قال : « إذاً فالكلمة والآية في قصد القصاص يلتقيان فرسي رهان » والرَّابعة : أنَّ القصاص في الآية أعمُّ يشمل القتل ، وغيره ، وأقرَّ الكاتب أنَّ للآية فضلاً عن الكلمة من هذه النَّاحية ، ولكنَّ الكلمة حكمةٌ لا شريعةٌ ، وهي من قضاء الجاهليَّة ، فليس عليها أن تبيِّن ما لم يعرفه العرب ولم يخلق بعد ، قال : إذاً فليست الكلمة مقصرةً عن بيان ؛ متبلدةً عن إحسانٍ » .

* * *

هذا كلُّ مقاله بحروفه بعد تخليصه من الرَّكاكة ، والحشو ، وما لا طائل تحته . ونحن نستغفر الله ، ونستعينه ، ونقول قولنا ، ولكنَّا نقدِّم بين يدي ذلك مسألة : فمن أين للكاتب : أنَّ كلمة « القتل أنفى للقتل » ممَّا صحَّت نسبته إلى عرب الجاهليَّة ، وكيف له أن يثبت إسنادها إليهم ، وأن يُوثِّق هذا الإسناد حتَّى يستقيم قوله : إنَّ القرآن أقبل على آثار العرب ؟!

أنا أقرِّر : أنَّ هذه الكلمة مولَّدةٌ ، وضعت بعد نزول القرآن الكريم وأخذت من الآية ؛ والتَّوليد بيِّنٌ فيها ، وأثر الصَّنعة ظاهرٌ عليها ، فعلى الكاتب أن يدفع هذا بما يثبت أنَّها ممَّا صحَّ نقله عن الجاهليَّة ، ولقد جاء أبو تمَّام بأبدع ، وأبلغ من هذه الكلمة في قوله :

وأخافكم كي تُغمدوا أسيافكم إنَّ الدَّمَ المغبرَّ يحرسُهُ الدَّمُ

(الدَّم يحرسه الدَّم) هذه هي الصِّناعة ، وهذه هي البلاغة ، لا تلك ، ومع هذا فكلمة الشَّاعر مولَّدةٌ من الآية ، يدلُّ عليها البيت كلُّه ، وكأنَّ أبا تمَّام لم يكن سمع قولهم : « القتل أنفى للقتل » وأنا مستيقنٌ : أنَّ الكلمة لم تكن وضعت إلى يومئذٍ[1] .

ولو أنَّ متمثِّلاً أراد أن يتمثَّل بقول أبي تمَّام ، فانتزع منه هذا المثل « الدَّم يحرسه الدَّم » أيكون حتماً من الحتم أن يقال له : كلا يا هذا ! فإنَّ البيت سبع كلماتٍ ، فلا يصحُّ انتزاع المثل منه ، ولا بدَّ من قراءة البيت بمصراعيه ، كما يقول كاتب الكوكب في الآية الكريمة ليزعم أنَّها لا تقابل الكلمة العربيَّة في الإيجاز ؟

إنَّ الَّذي في معاني الآية القرآنيَّة ممَّا ينظر إلى معنى قولهم : « القتل أنفى للقتل » كلمتان ليس غير ، وهما « القصاصُ حياةٌ » ؛ والمقابلة في المعاني المتماثلة إنَّما تكون بالألفاظ الَّتي تؤدِّي هذه المعاني دون ما تعلَّقت به ، أو تعلَّق بها ممَّا يصل المعنى بغيره ، أو يصل غيره به ؛ إذ الموازنة بين معنيين لا تكون إلا في صناعة تركيبهما . ويخيَّل إليَّ : أنَّ الكاتب يريد أن يقول : إنَّ باقي الآية الكريمة لغوٌ وحشوٌ ، فهو حميلة على الكلمتين : القصاص حياة ، يريد أن يقولها ، ولكنَّه

(١) سنثبت هذا بعدُ في تعليقٍ على هذه المقالة . (ع) .

غصَّ بها ، وإلا فلماذا يلجُّ في أنَّه لا بدَّ في التَّمثيل ، أي : لا بدَّ في المقابلة ، من ردِّ الآية بألفاظها جميعاً ؟

فإذا قيل : إنَّه لا يجوز أن يتغيَّر الإعراب في الآية ، ويجب أن يكون المثل منتزعاً منها على التِّلاوة ، قلنا : فإنَّ ما يقابل الكلمة منها حينئذٍ هو هذا ﴿فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ وجملتها اثنا عشر حرفاً ، مع أنَّ الكلمة العربيَّة أربعة عشر ، فالإيجاز عند المقابلة هو في الآية دون الكلمة .

وأما قوله تعالى : ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة : ١٧٩] فلو كان الكاتب من أولي الألباب ؛ لفهمها ، وعرف موقعها ، وحكمتها ، وأنَّ إعجاز الآية لا يتمُّ إلا بها ؛ إذ أريد أن تكون معجزةً زمنيَّةً ، كما سنشير إليه ، ولكن أنَّى له وهو من الفنِّ البيانيِّ على هذا البعد السَّحيق ، لا يعلم أنَّ آيات القرآن الكريم كالزَّمن في نسقها : ما فيه من شيءٍ يظهره إلا ومن ورائه سرٌّ يحقِّقه .

ثمَّ إنَّ الإيجاز في الكلمة العربيَّة ليس من « الإيجاز السَّاحر » كما يصفه الكاتب ، بل هو عندنا من الإيجاز السَّاقط ؛ وليس من قبيل إيجاز الآية الكريمة ، ولا يتعلَّق به فضلاً عن أن يشبهه ؛ إذ لا بدَّ في فهم صيغة التَّفضيل من تقدير المفضل عليه ، فيكون المعنى « القتل أكثر نفياً للقتل من كذا » ، فما هو هذا « الكذا » أيُّها الكاتب المتعثِّر ؟! .

أليس تصوُّر معنى العبارة وإحضاره في الذِّهن قد أسقطها ، ونزل بها إلى الكلام السُّوقيِّ المبتذل ، وأوقع فيها الاختلال ؟ وهل كانت إلا صناعةً شعريَّةً خياليَّةً ملفَّقةً ، كما أومأنا إلى ذلك آنفاً ، حتَّى إذا أجريتها على منهجها من العربيَّة ؛ رأيتها في طريقة هذا الكلام العربيِّ الأمريكانيِّ ، كقول القائل : « الفرح أعظم من التَّرح » ، « الحياة هي الَّتي تعطي للحياة » . . . ؟

بهذا الرَّدِّ الموجز بطلت الميِّزات الثَّلاث ؛ الَّتي زعمها الكاتب لتلك الكلمة ، وإنَّ الكلمة نفسها لتبرأ إلى الله من أن تكون لها على الآية ميزةٌ واحدةٌ فضلاً عن ثلاثٍ .

ولنفرض « فرضاً » : أنَّ الكلمة وثيقة الإسناد إلى عرب الجاهليَّة ، وأنَّها في بيانهم ، فما الَّذي فيها ؟

١ ـ إنَّها تشبه قول من يقول لك : إن قتلت خصمك ؛ لم يقتلك . وهل هذا إلا هذا ؟ وهل هو إلا بلاغة من الهذيان ؟

٢ ـ إنَّها تشبه أن تكون لغة قاطع طريقٍ عارمٍ[1] ، يتوثَّب على الحلال ، والحرام ، لا يخرج لشأنه إلا مقرراً في نفسه : أنَّه إمَّا قاتِل ، أو مقتول ، ولذلك تكرَّر فيها القتل على طرفيها ، فهو من أشنع التَّكرار ، وأفظعه .

٣ ـ إنَّ فيها الجهل ، والظُّلم ، والهمجيَّة ؛ إذ كان من شأن العرب ألا تسلِّم القبيلة العزيزة قاتلاً منها ، بل تحميه ، وتمنعه ، فتنقلب القبيلة كلُّها قاتلةً بهذه العصبيَّة ؛ فمن ثمَّ لا يَنفي عارَ القتل عن قبيلة المقتول إلا الحرب ، والاستئصال قتلاً قتلاً ، وأكل الحياة للحياة ، فهذا من معاني الكلمة : أي القتل أنفى لعار القتل ، فلا قصاص ، ولا قضاء ، كما يزعم الكاتب .

٤ ـ إنَّ القتل في هذه الكلمة لا يمكن أن يخصَّص بمعنى القصاص إلا إذا خصَّصته الآية ، فيجيء مقترناً بها ، فهو مفتقرٌ إليها في هذا المعنى ، وهي تُلبسه الإنسانيَّة ، كما ترى ، ولن يدخله العقل إلا من معانيها ؛ وهذا وحده إعجازٌ في الآية ، وعجزٌ من الكلمة .

* * *

وقبل أن نبيِّن وجوه الإعجاز في الآية الكريمة ، ونستخرج أسرارها نقول لهذا الطُّفيليِّ : إنَّه ليس كل من استطاع أن يُطيِّر في الجوِّ ورقةً في قصبةٍ في خيط ؛ جاز له أن يقول في تفضيل ورقته على منطاد زبلين ، وأنَّ فيما تتقدَّم به على المنطاد الكريم ميزاتٌ ثلاثاً : الذَّيل ، والورق الملوَّن ، والخيط .

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة : ١٧٩] :

١ ـ بدأ الآية بقوله : ﴿ وَلَكُمْ ﴾ وهذا قيد يجعل هذه الآية خاصَّةً بالإنسانيَّة المؤمنة ؛ الَّتي تطلب كمالها في الإيمان ، وتلتمس في كمالها نظام النَّفس ، وتقرِّر نظام النَّفس بنظام الحياة ، فإذا لم يكن هذا متحقِّقاً في النَّاس فلا حياة في

---

(١) « عارم » : شرس ، شديد .

القصاص ، بل تصلح حينئذٍ كلمة الهمجيَّة : القتل أنفى للقتل ، أي : اقتلوا أعداءكم ولا تدعوا منهم أحداً ، فهذا هو الَّذي يبقيكم أحياءً ، وينفي عنكم القتل ، فالآية الكريمة بدلالة كلمتها الأولى موجهةٌ إلى الإنسانيَّة العالية ، لتوجِّه هذه الإنسانيَّة في بعض معانيها إلى حقيقةٍ من حقائق الحياة .

٢ ـ قال ﴿ فِى ٱلْقِصَاصِ ﴾ ولم يقل : في القتل ، فقيَّده بهذه الصِّيغة الَّتي تدلُّ على أنَّهُ جزاءٌ ومؤاخذةٌ ، فلا يمكن أن تكون منه المبادأة بالعدوان ، ولا أن يكون منه ما يخرج عن قدر المجازاة قلَّ أو كثر .

٣ ـ تفيد هذه الكلمة ﴿ ٱلْقِصَاصِ ﴾ بصيغتها (صيغة المفاعلة) ما يشعر بوجوب التَّحقيق ، وتمكين القاتل من المنازعة ، والدِّفاع ، وألا يكون قصاصٌ إلا باستحقاقٍ ، وعدلٍ ، ولذا لم يأتِ بالكلمة من اقتصَّ مع أنها أكثر استعمالاً لأنَّ الاقتصاص شريعة الفرد ، والقصاص شريعة المجتمع .

٤ ـ من إعجاز لفظة ﴿ ٱلْقِصَاصِ ﴾ هذه : أنَّ الله تعالى سمَّى بها قتل القاتل فلم يسمِّه قتلاً كما فعلت الكلمة العربيَّة ؛ لأنَّ أحد القتلين هو جريمةٌ ، واعتداءٌ فنزَّه سبحانه العدلَ الشَّرعيَّ حتَّى شَبهه بلفظ الجريمة ، وهذا منتهى السُّموِّ الأدبيِّ في التَّعبير .

٥ ـ ومن إعجاز هذه اللَّفظة : أنَّها باختيارها دون كلمة القتل تشير إلى أنَّه سيأتي في عصور الإنسانيَّة العالمة المتحضِّرة عصرٌ لا يرى فيه قتل القاتل بجنايته إلا شرّاً من قتل المقتول ؛ لأنَّ المقتول يهلك بأسبابٍ كثيرةٍ مختلفةٍ ، على حين أنَّ أخذ القاتل لقتله ليس فيه إلا نيَّة قتله ، فعبَّرت الآية باللُّغة الَّتي تلائم هذا العصر القانوني الفلسفي ، وجاءت بالكلمة الَّتي لن تجد في هذه اللُّغة ما يجزئ عنها في الاتِّساع لكلِّ ما يراد بها من فلسفة العقوبة .

٦ ـ ومن إعجاز اللَّفظة أنَّها كذلك تحمل كلَّ ضروب القصاص من القتل فما دونه ، وعجيبٌ أن تكون بهذا الإطلاق مع تقييدها بالقيود الَّتي مرَّت بك ، فهذا بذلك لغة شريعةٍ إلـهيَّةٍ على الحقيقة ، في حين أنَّ كلمة القتل في المثل العربيِّ تنطق في صراحةٍ : أنَّها لغة الغريزة البشريَّة بأقبح معانيها ، ولذلك كان تكرارها في المثل كتكرار الغلطة ، فالآية بلفظة ﴿ ٱلْقِصَاصِ ﴾ تضعك أمام الألوهيَّة بعدلها وكمالها ، والمثل بلفظة (القتل) يضعك أمام البشريَّة بنقصها ، وظلمها .

٧ ـ ولا تنس : أنَّ التَّعبير بالقصاص تعبيرٌ يدع الإنسانيَّة محلَّها ؛ إذا هي تخلَّصت من وحشيَّتها الأولىٰ ، وجاهليَّتها القديمة ، فيشمل القصاص أخذ الدِّيَة ، والعفو ، وغيرهما ، أمَّا المثل فليس فيه إلا حالةٌ واحدةٌ بعينها كأنَّه وحشٌ ليس من طبعه إلا أن يفترس .

٨ ـ جاءت لفظة القصاص معرَّفة بأداة التَّعريف ، لتدلَّ على أنَّه مقيَّدٌ بقيوده الكثيرة ؛ إذ هو في الحقيقة قوَّةٌ من قوى التَّدبير الإنسانيَّة ، فلا تصلح الإنسانيَّة بغير تقييدها .

٩ ـ جاءت كلمة (حياة) منوَّنةٌ ؛ لتدلَّ على أنَّ هنا ليست حياةٌ بعينها ، مقيَّدةٌ بإصلاحٍ معيَّنٍ ، فقد يكون في القصاص حياةٌ اجتماعيَّةٌ ، وقد يكون فيه حياةٌ سياسيَّةٌ ، وقد تكون الحياة أدبيَّة ، وقد تعظم في بعض الأحوال عن أن تكون حياةً .

١٠ ـ إنَّ لفظ (حياة) هو في حقيقته الفلسفيَّة أعمُّ من التَّعبير (بنفي القتل) لأنَّ نفي القتل إنَّما هو حياةٌ واحدةٌ ، أي : ترك الرُّوح في الجسم ، فلا يحتمل شيئاً من المعاني السَّامية ، وليس فيه غير هذا المعنى الطَّبيعيِّ السَّاذج ، وتعبير الكلمة العربيَّة عن الحياة (بنفي القتل) تعبيرٌ غليظٌ عاميٌّ يدلُّ على جهلٍ مطبقٍ ، لا محلَّ فيه لعلمٍ ، ولا تفكيرٍ ، كالَّذي يقول لك : إنَّ الحرارة هي نفي البرودة .

١١ ـ جعْلُ نتيجة القتل حياةً تعبيرٌ من أعجب ما في الشِّعر يسمو إلى الغاية من الخيال ، ولكن أعجب ما فيه : أنَّه ليس خيالاً ، بل يتحوَّل إلى تعبيرٍ علميٍّ يسمو إلى الغاية من الدِّقَّة ، كأنَّه يقول بلسان العلم : في نوعٍ من سلب الحياة نوعٌ من الحياة .

١٢ ـ فإذا تأمَّلت ما تقدَّم ، وأنعمت فيه[١] تحقَّقت : أنَّ الآية الكريمةَ لا يتمُّ إعجازها إلا بما تمَّت به من قوله ﴿ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ فهذا نداءٌ عجيبٌ يسجد له مَن يفهمه ؛ إذ هو موجَّهٌ للعرب في ظاهره على قدر ما بلغوا من معاني اللُّبِّ ، ولكنَّه في حقيقته موجَّهٌ لإقامة البرهان على طائفةٍ من فلاسفة القانون ، والاجتماع ، هم هؤلاء الَّذين يرون إجرام المجرم شذوذاً في التَّركيب العصبيِّ ، أو وراثةً محتومةً ، أو حالةً نفسيَّةً قاهرةً ، إلى ما يجري هذا المجرى ، فمن ثمَّ يرون أن لا عقاب على

(١) « أنعمت فيه » : أنعم النَّظر في الأمر : أطال الفكرة فيه .

جريمةٍ ؛ لأنَّ المجرم عندهم مريضٌ له حكم المرضى ؛ وهذه فلسفةٌ تحتملها الأدمغة ، والكتب ، وهو تحوُّل القلب إلى مصلحة الفرد وتصرُّفه عن مصلحة المجتمع ، فنبَّههم الله إلى ألبابهم دون عقولهم ، كأنَّه يقرِّر لهم : أنَّ حقيقة العلم ليست بالعقل ، والرَّأي ، بل هي قبل ذلك باللُّبِّ والبصيرة ، وفلسفة اللُّبِّ هذه هي آخر ما انتهت إليه فلسفة الدُّنيا .

١٣ ـ وانتهت الآية بقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٩] وهي كلمةٌ من لغة كلِّ زمنٍ ، ومعناها في زمننا نحن : يا أولي الألباب ! إنَّه برهان الحياة في حكمة القصاص تسوقه لكم ، لعلَّكم تتَّقون على الحياة الاجتماعيَّة عاقبة خلافه ، فاجعلوا وجهتكم إلى وقاية المجتمع ، لا إلى وقاية الفرد .

* * *

وبعد ؛ فإذا كان في الآية الكريمة ـ ما رأيت ـ ثلاثة عشر وجهاً من وجوه البيان المعجز ، فمعنى ذلك من ناحية أخرى : أنَّها أسقطت الكلمة العربيَّة ثلاث عشرةَ مرَّةً .

* * *